باب النقد والأدب:

1 – سلطة الزمان وتجلياته المكانيّة في الكتابات السرديّة

بقلم الأستاذة الدكتورة: مها خير بك ناصر
أستاذة النحو العربيّ المنطقيّ والنقد العربيّ الحديث
maha_h86@hotmail.com

أولاً: فاتحة البحث

إنّ الزمن في العلوم الرياضيّة والفيزيائيّة هو العنصر المتحوّل الوحيد الذي لا يرتبط تحوّله بأي متحوّل آخر، وبه تتم دراسة حركة الأجسام وسرعتها وتسارعها وقوتها وعملها على أنّها توابع بالنسبة إليه. أمّا المكان فهو الفضاء الثابت والذي يحتمل التغيير فيضيق أو يتسّع أو ينقبض أو ينبسط، وتكون تحوّلاته توابع لحركيّة الزمن.

تناول الكثيرون من الفلاسفة والعلماء قضية الزمان والمكان، وكان كلام الإمام جعفر الصادق «عليه السلام» أكثر تصويرًا لمفهوم المكان، فقال:» إنّ للمكان وجودًا تبعيًّا لا ذاتيًّا، وهو يتراءى لنا بالطول والعرض والارتفاع، ووجوده التبعيّ يختلف باختلاف العمر»، وهذا الكلام يشير إلى أنّ المكان تابعٌ لحركة زمن يمنحه وجوده التبعيّ، وهذا الوجود له ثلاثة أبعاد؛ الطول والعرض والارتفاع، أمّا الزمان فهو المتبوع المتحوّل باستمرار وغير الخاضع لأيّ متحوّل، وغير المحدود بثلاثيّة الأبعاد.

تأسيسًا على ما سبق يمكن القول إنّ للمكان ثلاثة أبعاد، وللزمن بعدًا واحدًا هو الحركة الأماميّة، ولمّا كان الواحد أسبق على الجمع، فإنّ الزمان سابق على وجود المكان، فلا مكان خارج الزمان، فالمكان تابع حركة الزمان، وهو ثابت وفق ما ذهب إليه أرسطو في مقولته: «المكان هو الحدّ اللا متحرك المباشر الحاوي»، ولأن قيمة الحاوي ترتبط بالحجم وبنوع مادة الامتلاء، فلقد شبّه الرازي المكان بالوعاء، والوعاء محدّد، وله حجم، وقيمته مرتبطة بقيمة المحتوى وبفاعليته. فرأى فيه ابن رشد « النهاية المحيطة بالحركة».

يكتسب المكان، إذًا، قيمته من المحتوى الذي يمنحه الامتلاء، وقيمة المحتوى مرتبطة بطبيعة فعل الحراك الإنسانيّ الذي يمنح المكان هويّة تتمايز بتمايز الفعل الحركيّ، والحركة لا تكون من دون زمان، فلا هويّة للمكان، إذًا، من دون زمان يكسبه الوجود

والحضور والهويّة. لأنّ المكان وفق فلسفة أفلاطون وأرسطو يحتوي الأجسام، ويحيط بحركتها، ويكون شاهدًا على فاعليتها، فلا وجود، إذًا، لفعل الإنسان من دون وجود المكان/ المختبر الذي يحتوي وجودًا محقّقًا بحركة الزمان. فالمكان ثابت لا فاعليّة له من دون حركة زمن، سمته الأساس حركة لا تعرف الثبات، فالزمن حركة دائمة نحو أمام لانهاية له.

يمكن الاستنتاج مما سبق أنّ المكان لا هويّة له من دون مسارات زمن يصنعها إنسان يمنح جغرافيا المكان هويتها، فالمكان، إذًا، « ليس الامتداد ولا الممتد، بل هو ما يمتدّ الممتد فيه»[1] ، ولذلك ربط العالم الفيزيائيّ من أصل روسيّ «اسحق عظيموف» قيمة المكان بفاعليّة الضوء، فقال: «المكان لا وجود له، وإنّ الضوء هو الذي يوجد المكان، وإنّ أشعة الضوء وموجاته هي المكان».، فالمكان يستمدّ أبعاده من أشعة الضوء وموجاته، والضوء تتسّع فاعليته بقدر ما تشعّ الذوات البشريّة من ذواتها على أماكن شهدت اختباراتها فتتسع دائرة الضوء المكانيّ باتساع ضوء الحركة في زمن محدود أو ممتد.

استنادًا إلى ما سبق يجوز القول إنّ المختبرات التي يفعّل تجاربها، عن قصد أو غير قصد، إنسان عاقلٌ وفاعلٌ هي الأمكنة الأكثر بروزًا وديمومة واستمرارًا وحضورًا في محطات زمنيّة تمارس على ذاتها الثبات والصيرورة، فالثبات من حيث هوية مكان تابع، وسيرورة من حيث الفعل الإنسانيّ المرتبط بحركة الزمن الممتد إلى ما لانهاية. ولأنّ الإنسان عاجزٌ عن مصارعة الزمن وعن اللحاق به، فهو يسعى دائمًا إلى ستر هذا العجز بسيادته على مكان تابع مثله لفعل الزمن. فما هي قيمة المكان التابع لزمن مقاوم؟

يمنح الفعل المقاوم جغرافيا الصراع والحروب حضورًا بالقوة وبالفعل، فتكتسب الأمكنة ألقها وفاعليتها وماهياتها من طبيعة الحركة المقاومة، وتصير الحركة المقاومة أيقونات في أعمال أدبيّة تتجلّى فيها جدلية العلاقة بين الزمان والمكان، وبخاصة ما جاء منها فنًا روائيًّا، لأنّ الأعمال القصصيّة والروائيّة لا تكون من دون وعاء تنضج فيه الأحداث على أيدي شخصيات ترتبط بأمكنة تابعة لزمن يمنحها الوجود الماديّ والمعنويّ، وبهذه العلاقة تكتسب الأمكنّة من أشعة الضوء المقاوم حضورًا مغايرًا ممتلئًا بقيمة الفعل الجهاديّ الذي تشعّ به الذوات المقاومة، فتتسّع دائرة الضوء المكانيّ باتساع ضوء الحركة في زمن محدود أو ممتد. فكيف تجلّت هذه العلاقة في الروايات الناطقة بفعل

(1) عبد الرحمن بدوي، مدخل جديد إلى الفلسفة، ص197.

مقاوم في زمن وسمت سيرورته بالمقاومة؟

ثانيًا: جدلية العلاقة بين الزمان والمكان في تشكيل الحدث المقاوم

إنّ المكان هو مختبر أحداث تنتجها لحظات عابرة ومرتبطة بزمن متحرك متحوّل، فجسّد المكان عالم الثوابت، واختصّ الزمان بالتحوّل والحركة والتغيير، والتغيير لا يكون في جوهر الزمان بل في طبيعة المسارات المكانيّة التي غيّر الزمان من صورتها ووظائفها وحضورها، فلا يُقرأ الزمن إلاّ من خلال سيرورة تركت علامات على صفحات أمكنة يشكّل وجودها ضرورة من ضرورات رؤية الحدث وقراءته وكتابته وتأويله.

تترك حركة الزمان علاماتها على ذاكرة الأمكنة، فتؤرّخ اللحظة عينها سمات العلاقة الحتميّة بين المكان والزمان في أماكن لا حصر لها، ولذلك تتمايز العلامات بتمايز النتائج المرتبطة، حكمًا، بطبيعة المكان الخاضع لفعل زمن متحرك، فيكتسب المكان خاصيتي الثبات والتحوّل؛ الثبات من حيث الجغرافيا والكينونة، والتحوّل من حيث الشكل والفعل الحضاريّ، فالمكان أشبه بوعاء ينضح بقيمة فعل الزمان الفيزيائي الحركيّ الذي يمنح المكان هوية متجدّدة، ويمنحه المكان، في اللحظة عينها، علامات تشير إليه من دون أن يحتويه.

تضمر الفرضيات السابق ذكرها حقيقة علاقة الزمان بالمكان، فالزمان روح الوجود لا يُدرك بذاته بل بأفعاله من خلال أدواته، فأسماء الأمكنة، إذًا، صور تجسّد دلالات فعل الزمان وفاعليته، فالأمكنة تتغيّر صورها وفق فعل الزمان فيها، وبها يُستدلّ على قيمة اللحظات العابرة. فلا معرفة بقيمة الزمان من دون مكان يجسّد بعض حركته، ولا قيمة لمكان غير خاضع لسلطة زمن يمنحه الحضور المعنويّ، فالزمان، من حيث إدراكه، باطن مستتر يدرك ذاته بذاته ويعرّف بنفسه من خلال فعل حركته، والمكان هو الظاهر الدّال بعلاماته على فعل الزمان فيه وعلى احتوائه أحداثًا يؤرّخ لها في لحظة زمنيّة مقتطعة من الزمن الكليّ، ولذلك يمكن القول إنّ الزمن المقاوم اكتسب اسمه من خلال فعله في جغرافيا، اكتسبت هي أيضًا، من فعل الزمن فيها دلالات ومعاني جديدة. ولأنّ الفعل لا يقوم من دون أدوات تصنع الحدث، يمكن القول إنّ البشر هم أدوات الزمان، وبهم يُصنع الحدث الذي يحتويه مكانٌ خاضع لفعل الزمان.

تؤكّد الحروب اللبنانيّة /الإسرائيليّة أنّ أبناء الجنوب صنعوا الحدث المقاوم في فترات زمنيّة مقتطعة من الزمن الكليّ، فكان الشعب الجنوبيّ أدوات فعل الزمن في جغرافيا محدّدة من هذا العالم الأرضيّ، ووسمت حركته المقتطعة من كليّة لا تعرف الثبات باسم

زمن المقاومة/ زمن التحرير/ زمن الانتصار/ زمن النصر. فحافظت الأمكنة على ثباتها الجغرافيّا، واكتسبت من الحراك الجديد دلالات التحوّل والتغيير، فتحوّل المكان من مرتع للمير كافا إلى مقبرة لها.

استنادًا إلى ما سبق يمكن القول إنّ الأرض الجنوبيّة كانت المختبر الذي احتوى موادّ إنضاج النصر في مراحل زمنيّة متعددة، كان آخرها زمن الانتصار 2006، فأكسبت الحروب الأمكنة هويّة أكثر جدة وفرادة، فوادي الحجير، على سبيل المثال، لم يبقَ منطقة جغرافيّة تحمل مفهوم الوادي، لأنّ زمن المقاومة والانتصار أكسب هذه الجغرافيا مفهوم البطولة، وصار للاسم مرادف جديد هو مقبرة المير كافا، وغيرها من الأسماء الناطقة بعظمة الحدث الأسطوريّ المقاوم في زمن صنع هويته شعب مقاوم.

تؤكّد عملية رصد للأعمال القصصيّة والروائيّة التي أعادت صياغة أحداث الحروب اللبنانيّة وصوّرت أبطالها وأمكنتها وحدّدت أزمنتها، أنّ معظم هذه الأعمال تقوم على الإخبار وسرد الأحداث التي شهدها لبنان، وعلى قراءة النواتج والآثار في خلال مدة زمنيّة محدّدة ومقتطعة من الزمن الكليّ المتحرك نحو اللانهايّة، ولذلك يجوز أن يسمّى زمن المنتج السرديّ بالزمنيّة ؛ لكونه زمنًا خاصًا يعيشه القاصّ أو الروائيّ، ثمّ يعبّر عنه بلغه إبداعيّة قادرة على إعادة إنتاج المشاهد والمعارف بصور لغويّة فنيّة ترتبط بالأصل بقدر ما تعكس قدرة الكاتب الفنيّة.

ترتبط قيمة عملية إعادة تصوير المشاهد وصياغتها وترتيبها بقدرة الأديب على استرجاع ذاكرة اختزنت أحداث زمن تجاوز الحاضر، وعملية الاسترجاع تتمايز بتمايز التجربة الإنسانيّة وبتمايز الطاقات اللغويّة وغير اللغويّة القادرة على قراءة مشاهد مقتطعة، افتراضيًّا، من حركة الزمن الكليّ، ومن ثمّ إعادة تشكيلها، فالزمن بوصفه حركة فيزيائيّة نحو أمام لانهاية له يرسم مسارات حركته على أمكنة لا تعرف التحوّل إلاّ في أشكال تعكس أثره وتجلياته، وهذا التحوّل يرصده مبدع ما ليصوغ منه عملاً فنيًّا يؤكّد جدليّة علاقة الزمان بالمكان، فيأتي المنتج الإبداعيّ أشبه بوثيقة تاريخيّة واجتماعيّة ووطنيّة وإنسانيّة.

أرّخ الأدباء والمفكّرون للأحداث بنتاج أدبيّ وفكريّ، وكثرت الإصدارات القصصيّة والروائيّة التي تحدّثت عن الحروب اللبنانيّة، والتي جاء معظمها نوعًا من التأريخ للأحداث، وتوصيفًا للواقع الاجتماعيّ والاقتصاديّ والسياسيّ والوطنيّ والنفسيّ، وتصويرًا للخراب والدمار والقتل والمآسي الإنسانيّة في أمكنة وأزمنة مختلفة من لبنان،

وكان للجغرافيّة الجنوبيّة حضور بارز في الكتابات القصصيّة والروائيّة، لكونها تعيش واقعًا مشحونًا بالصراعات والحروب والمآسي الاجتماعيّة والإنسانيّة، فيحرّض هذا الواقع الأقلام المبدعة على التصوير الفنيّ، فتولد رسوم كلاميّة؛ شعريّة ونثريّة، تنطق بالأحداث والقيم.

رسمت معظم القصص والروايات طبيعة الحروب الإسرائيليّة على جنوب لبنان، وأشارت إلى الأهداف، وكشفت عن حجم الخراب والدمار في أمكنة كانت وعاء للأحداث، فأخبرت هذه القصص والروايات عن عظمة شعب لم يخفّف من صموده ودفاعه عن أرض الجنوب ما جلبته الحرب من دمار وقتل وثكل ويتم وإعاقة، فكان الجنوبيون أدوات صنعت الحدث في زمن مقتطع من زمن كليّ، وفي مكان ثابت احتوى الحدث ووسِم به، فحافظت الأمكنة على ثباتها الجغرافيّ، واكتسبت قيم التغيير والتحوّل من معنى الفعل المقاوم في زمن المقاومة.

مما لاشكّ فيه أنّ النتاج القصصي والروائي اللبنانيّ يحظى بالتقدير، ويستحقّ من النقّاد قراءة نقديّة علميّة، ولأنّ هذا البحث يعجز عن الإحاطة بكلّ ما باحت به أقلام إبداعيّة، فستكون هذه الدراسة مقصورة على عملين أدبيين كتبهما أديبان لبنانيان من الجنوب اللبناني، أولهما مجموعة قصصيّة بعنوان « عناقيد العطش»1 للدكتور علي حجازيّ، وثانيهما رواية «شجرة النور»2 للأديبة لطيفة الحج، فيكون هذان العملان أنموذجين ناطقين بالعلاقة الجدليّة بين الزمان والمكان، وذلك من خلال لغة سرديّة كشفت عن الثبات والتحوّل في شخصية مكان كان مسرحًا لأحداثٍ رشحت بأخبار الدمار والخراب والمقاومة والبطولة.

ثالثًا: تجليات الزمان والمكان في كتاب «عناقيد العطش»

تكشف قراءة المجموعة القصصيّة «عناقيد العطش» للدكتور علي حجازي عن علاقة الدكتور حجازي ابن الجنوب بأرض الجنوب، فاقتصر وعاء الأحداث على مكان كليّ هو جغرافيا الجنوب اللبنانيّ وما يحتويه من أوعيّة مكانيّة محتواة في المكان الكليّ، وهذه الأمكنة يضيء عليها زمن يتحرك، ويتحرّك معه أبطال يصنعون الأحداث.

خلت عناوين المجموعة القصصيّة من أسماء الأمكنة، باستثناء عنواني «لم تبصر دمارًا في الضاحية» و«الحجير»؛ ولكنّ الأمكنة تفرض نفسها في أيّ حدث مقاوم،

(1) «عناقيد العطش» مجموعة قصصيّة للدكتور علّي حجازي – دار الفارابي- بيروت- لبنان- ط1 2012.

(2) « شجرة النور» رواية للأديبة اللبنانيّة لطيفة الحج، صادرة عن دار الفارابي، بيروت لبنان، ط1 2009

والحدث مرتبط بزمان قام به أبطال في لحظات مقاومة أضاءت الأمكنة ومنحتها هويّة أكثر تعبيرًا عن الفعل المقاوم، فاكتسبت الأمكنة حضورًا فاعلاً في وجدان أحرار العالم، وصار اسم « الضاحية – وادي الحجير –العديسة– القنطرة– مارون الراس– عيتا– بنت جبيل– عيناتا– مركبا– كفركلا– الغندوريّة –السهيلة» أكثر من جغرافيا. لقد تحوّلت الأسماء إلى رموز للصمود والوفاء والانتماء والبطولة والشهادة.

تضمّن الكتاب أربع عشرة قصة قصيرة، قوامها الحدث البطولي المقاوم في جغرافيا جنوبيّة، وذلك في خلال عدة أزمنة مقتطعة من الزمن الكليّ. ولقد جاء ترتيب القصص غير خاضع لترتيب زمنيّ، وربّما كان هذا النوع من الترتيب الزمنيّ نتيجة إيمان علي حجازي بأنّ المكان الثابت يستمدّ معاني جديدة من ضوء الحدث، وتدوين الحدث خاضع لعملية الاسترجاع الزمني، وهذه العمليّة لا تخضع في الترتيب لحركة الزمن بل لموقع الحدث في ذات الكاتب.

لم يخضع علي حجازي، إذًا، ترتيب قصصه لتسلسل زمنيّ، فالقصة الأولى والتي جاءت بعنوان«لم تُبصر دمارًا في الضاحية» كُتبت بعد حرب تموز، وقصة «أملاك خاصة» قدّم لها الكاتب بعبارة «ما يشبه المقدّمة» وترك زمنها مفتوحًا، ليربط القصة بعام التحرير «2000»، وقصة «الطالب الجامعي يحاضر شهيدًا» كُتبت بعد التحرير عام 2000. وقصة الحجير كتبها عام 2009 أي بعد النصر بثلاثة أعوام، وقصة أيقونة نادرة...رائحة عرقهم» 2006 بعد الانتصار. أمّا «عناق حار على هامش الأيام السبعة» فلقد اقتطع الكاتب زمنها، وتركه من دون تاريخ، ثم يؤرّخ لـ « حميد الجمّال» بـ«بعد الاجتياح 1982»، ولـ «ذنب الأفعى بـ » قبل الاجتياح الأميركي للعراق 2003، ولـ «فراشة الضوء الشمالية» بـ«بعد انتصار 2006» ولـ «عناقيد العطش» بـ«عقب مجزرة قانا 1996»، ولـ«عرس الدوريّ» بـ«بعد التحرير 2000»، ولـ «عجنة 1» « بقبل الاجتياح 1982» وترك «عجنة 2 » من دون تاريخ، ولكنّه ختم القصة بعبارة تختزل علاقة الأرض بزمن المقاومة، فقال:«تغيّرَ زمن السهيلة .أنت الآن في زمن آخر، أنت الآن في زمن المقاومة»[1] .

يشير هذا التداخل في تأريخ القصص إلى أنّ المكان بالنسبة إلى الكاتب وعاء يحتوي أحداثًا تقوم بها شخصيات تنتمي إلى مكان يؤّثر في تشكيل الشخصيّة وفي أدائها، لكونهما مرتبطين بحركة تبادليّة خاضعة لحركة الزمان، ولذلك يمكن القول إنّ للمكان

(1) عناقيد العطش، ص 132.

دورًا أساسًا في صياغة الشخصيّات والأحداث الروائيّة، وإنّ للشخصيّات دورًا أساسًا، أيضًا، في صياغة شكل المكان وفي رسم تحوّلاته التابعة حركيّة الزمان. فهل يرفض علي حجازي، في اللاوعيّ، تبعية المكان الجنوبيّ وتبعية أبنائه لحركة الزمان؟ هل يحاول علي حجازي أن يحرّر تأريخ قصصه من سلطة الترتيب الزماني؟ وهل الزمن المقاوم، في رأيه، خارج على التقطيع والتأريخ؟ وهل العلاقة الجدلية بين المكان المقاوم والزمان علاقة تكامل وتوأمة؟

تصعب الإجابة عن أسئلة تحتاج إلى دراسة نفسيّة للألفاظ والعبارات ، ولكن مما لا شكّ فيه أنّ مجموعة القصص كشفت عن ارتباط علي حجازي بالمكان الذي تعددت صوره بتعدّد أنساق حركات المقاومة، وعن ارتباطه بجغرافيا المكان الثابتة والتابعة أزمنة تخبر عن فاعلية الحدث المقاوم، فهذه الأزمنة المقتطعة من الزمن الكليّ تؤكّد أنّ زمن الفعل المقاوم في جغرافيا مقاومة لا تتغيّر فاعليتها ونتائجها، ولذلك لا يعني الكاتب أن يقدّم زمنًا مقتطعًا على زمن آخر مقتطع، لأنّ غايته المعنى، والمعنى واحد لأنّ الجوهر واحد.

يحاول علي حجازي من خلال تصويره الأمكنة والشخصيات، أن يُعرّف بأناه العاشقة المقاومة، وباعتزازه بأمكنتها وبأبطالها المنتسبين إلى أزمنة مختلفة، والمنتمين إلى عادات وتقاليد وقيم أخلاقيّة ودينيّة واجتماعيّة وإنسانيّة، فربط فاعلية الحدث المقاوم بثبات الجغرافيا، من جهة، وبتحولاتها الناتجة من فعل الزمان، من جهة ثانية، فالجغرافيا الجنوبيّة هي عينها في القصص جميعها، ولكنّ البطولات التي حقّقت الانتصارات ليست واحدة، لكون حركتها مقترنة بحركة زمان لا يعرف الثبات. ولذلك لا يمكن قراءة هذه النصوص إلا من خلال العلاقة الجدليّة بين الزمان والمكان، وفي هذه القضيّة قال الناقد العربيّ عبد الملك مرتاض: « لا يمكن تناول المكان بمعزل عن تضمين الزمان كما يستحيل تناول الزمان، في دراسة تنصب على عمل سرديّ، دون (من دون) أن لا(ألاّ) ينشأ عن ذلك مفهوم المكان، في أيّ مظهر من مظاهره»[1].

تظهر مجموعة قصص « عناقيد العطش» أنّ فعل الزمان في المكان متغيّر، وهذا التغيّر ينتج مصطلحات جديدة تتوافق ونتائج الحدث، وتمنح المكان معاني جديدة، فحرب تموز، على سبيل المثال لا الحصر، منحت وادي الحجير اسمًا جديدًا مرتبطًا بدلالات الفعل المقاوم البطوليّ، فأثبت الكاتب المصطلح الجديد في حوار، كان هدفه

(1) عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر 1995، ص 227.

تكريس الفعل المقاوم حضورًا روحيًّا يرشح بمعاني البطولة في وجدان التاريخ والأجيال، فقال: « وادي الحجير ليست مغارة إنّها مأسدة» [1].

يحاول علي حجازي من خلال رسم الأحداث والتركيز على انتماء الشخصيات إلى المكان أن يؤكّد أنّ علاقة الإنسان بالمكان وبساكنيه وقيمه وعاداته وتقاليده لا تتغيّر فأبو شكيب الآتي من زمن بطوليّ مضى يدعو إلى المحافظة على عادات المكان وتقاليد أهله، على أن يكون التجديد موسومًا بالنظافة والطهارة والعمل الجماعيّ، فنبّه إلى عدم انتظام وقع أقدام الشبان والصبايا وإلى الأرض غير المرتوية بالماء، فقال:

«رشوها بدموعكم...رشوها من عرق أجسادكم، بللوها بدمائكم...لا أحبّ رؤية الغبار يأكل أشكالكم، يغيّب صوركم»[2] ، لأنّ هذا الشهيد استمرّ فعل حياة في المكان، واستمرّت علاقته به على الرغم من حركة الزمان وتغييراته ، فكانت شخصيّة أبي شكيب رمزًا لحبّ الأرض والارتباط بها، لذلك «مسّد على أغصان الزيتونة المهمشّة ، قبّلها، ومضى»[3] ، وكان أبو شكيب، أيضًا، رمزًا لمقاوم يعترف بالتغييرات التي تفرضها الأحداث، ولكنّ التغيير بالنسبة إليه يكون في الشكل وليس في الجوهر فخاطب ابنه قائلاً: «أعد بناء البيت بحجارتها ذاتها يا بني»[4].

يكشف فعل الشخصيات القصصيّة عن ارتباطهم بالمكان، وعن رفضهم الانفلات منه، على الرغم من سلطة زمان تركت حركته تغييرات وتحوّلات في الشكل ، فالبطل مرتبط بكلّ شبر من مكان انتمى إليه، لذلك «راح يغسل عينيه بالأرض البور التي يقصدها»[5]، ويشجع على توظيف الوقت من أجل حماية المكان، لأنّ «لكلّ دقيقة ثمنًا غاليًا»،[6] ، ويحرّض الشباب على الانخراط في صفوف المقاومة ، لأنّ الدفاع عن الأرض حقّ وواجب ودينٌ لا يدرك حقيقته إلاّ من تنشّق عطر الأرض وآمن بانتمائه إليها، فخاطب أبو شكيب ابنه قائلاً: «اجمع شميلة من الزهر الذي نبت على تربة السهيلة فهي تخبرك بالحساب المتبقي لك في رقبة الخنازير»[7].

(1) عناقيد العطش، ص 42.

(2) عناقيد العطش، ص 120

(3) .م.ن.

(4) م.ن. ص 121

(5) م.ن. ص 122

(6) م.ن. ص 123

(7) م. ن. ص124

يؤكّد الحوار في المجموعة القصصيّة أنّ سلطة الزمان تفرض تغييرات على طبيعة المكان، ولكنّ الفكرة المقاومة تبقى حيّة وفاعلة في نفوس الأبطال الذين يفيدون من الماضي ليجعلوا منه قوسًا يسدد سهامهم نحو الآتي بدقّة ونجاح، فكان لهذا الماضي فعله في وجدان سارد تعلّم فعل الانتماء إلى مكان له حاضر وماض ومستقبل فقرّر الذهاب إلى جغرافيا مقاومة متسائلاً عن سرّ الانجذاب والتعلّق بأرض أكثر ما نبصر عليها صور المآسي وقوافل الشهداء، فرسم أثر المكان والزمان في نفسه وقال: «جثوت على التراب، لمّسته، أحسست بحنين يشدني إلى الماضي»[1]، ثم يتعرّف مع أبي شكيب من خلال شاشة تلفاز إلى أنّ زمن السهيلة تغيّر بفضل مقاومين وسموا زمن الحدث بزمن المقاومة.

يجسّد هذا العمل الفنيّ القصصي حقائق اجتماعيّة ونفسيّة ووطنيّة، فلم يكن الكلام على المكان وحركة الشخصيات مجرد سرد وإخبار، بل كان له وظائف ودلالات ومقاصد وغايات، فالمكان الذي خسر أبناءه ما يزال الزمن الحاضر يحترم غيابهم الجسديّ ويحفظ حضورهم المعنويّ في أمكنة تخبر عنهم، والمكان الذي كان ممتلئًا بحضور الطالب الجامعيّ، على سبيل المثال، صار فارغًا من حيث الشكل، ولكنّه ما يزال ممتلئًا بفعل النموذج الناطق بالأمثلة والمعارف، فيبقى المكان في زمن مضى منارة لكلّ طالب جامعيّ تشخص عيونه إلى كرامة الوطن.

تؤكّد هذه الصورة التي رسمها علي حجازي أنّ الزمان المتحرك دائمًا لا يُفقد المكان قيمته ومعانيه، فاستطاع بلغة سرديّة متماسكة ومعبّرة أن يظهر هذه العلاقة الجدليّة بين زمن يغيّر في شكل المكان، من دون أن يسلبه قيمة اللحظات المضيئة، وهذا ما تظهره عبارة يصف فيها فراغ المكان وامتلاءه في اللحظة عينها: «مقعد فارغ فقط في الصف الأماميّ، إنّه مقعد حسين، وهذه طاولته تحمل أمثلة الدرس، والكلّ شاخصٌ إليهما. أينه؟»[2].

تضمر لفظة «أينه» حضور المكان الفارغ، وغياب الزمن الماضي، فكان حضوره المضمر مرتبطًا بمكان يشهد على الحضور والغياب، لأنّ كلمة « أين» تفيد المكان، وكلمة «الهاء» تفيد الغياب. وبهما تبقى العلاقة سؤالاً يحتاج إلى دراسات لتجيب عن سرّ هذه السلطة الزمنيّة على أمكنة تتغيّر وتتحوّل من دون أن تتخلّى عن ثباتها.

(1) م. ن. ص 125.

(2) م.ن، ص 31.

رابعًا: تجليات الزمان والمكان في كتاب « شجرة النور» للطيفة الحاج

كان لحرب تموز فعل تحريض إبداعيّ تجلّى في صدور عدد من الروايات والقصص التي رسمت الأحداث والنتائج بريشة استمدت ألوانها من الخصب التلويني الدلالي لعناصر اللغة وقوانين تعالقها، وكانت رواية «شجرة النور» للروائية اللبنانيّة لطيفة الحاج واحدة من الروايات التي تناولت الحرب ونتائجها، لتكبر النصر الذي حقّقه أبطال المقاومة.

تبدأ الرواية بالكلام على الشعور بانتهاء الحرب وبانتهاء رحلة النزوح عن بيروت نتيجة القصف الاسرائيليّ، غير أنّ العودة إلى بيروت كانت بداية الكشف عن النتائج الاجتماعيّة والنفسيّة والاقتصاديّة والانتمائيّة بعد معاينة ضخامة الكوارث التي خلّفتها الحرب، فألقى منير زوج نور المسؤولية على مقاومة وفّرت ذريعة للعدو، فتذكّره نور بطبيعة العدو وبأنّ قرار الحرب قد اتخذته قيادة العدو، وبأنّ المقاومة هي شجرة النور الوحيدة في تلك الغابة الشائكة وتلك العتمة الحالكة، ولقد استطاعت بفضل بسالة المقاومين الشرفاء وتضحياتهم أن تبدّد غطرسة الجيش الذي لا يُقهر.

مزجت لطيفة الحاج في روايتها بين التاريخيّ والواقعيّ وشحنت الأحداث بطاقة تخييليه رسمت الأحداث بدقّة، واختارت أسماء شخصيات الرواية التي تؤكّد انتماءها إلى جغرافيا كانت مناطقها وأمكنتها أهدافًا رئيسة في أثناء الحرب، فأوردت ،بأمانة العارف، أسماء الأمكنة التي شهدت الغطرسة، من دون أن تحصر معرفتها في منطقة الجنوب، وربّما كان سبب مروحة أسماء الأمكنة في الرواية ناتج من اتساع الرقعة الجغرافيّة التي تمّ تدميرها، فذكرت ،على سبيل المثال لا الحصر، « الضاحية- بيروت- صيدا- جسر المدفون، وجسر الفيدار، وجسر المعاملتين»، وغيرها من المناطق التي نال منها عدوٌ أُصيب بالهلع والخوف والإرباك بعد أن أسقط رجال الله مقولة « الجيش الذي لا يقهر» وأسندوا الفعل الأسطوريّ إلى مقاومة أرغمته، ومن وراءه، على الاعتراف بتفوّق المقاومة وعلى إلغاء فكرة الأسطورة من قاموسه وقاموس العرب المتخاذلين.

تضمّنت الرواية موضوعات إنسانيّة، قوامها الحب والوفاء والفراق واللقاء والألم والتضحيّة والتعاون والقهر، وكانت الركيزة الأساس لهذه الموضوعات الإنسانيّة تكمن في موضوع العقم الذي حرم الزوجين نعمة الأبناء، فعوّضا عنها بنعمة سعادة عاشاها وهما يعتنيان بمدرسة تشهد نماء وتطورًا، غير أنّ هذا الولد الفكري والروحيّ وقع ضحية التخريب والتدمير، فكانت خسارة المكان نوعًا من الثكل، وأمام تجربة الثكل ترشح

النفوس بمعدن المكان الذي تنتسب إليه.

أظهر منير زوج نور وشريكها في نمو المدرسة وتطويرها تذمّره من الحرب، فأنطقته الروائيّة بما كان يدور في رؤوس بعض المنهزمين من الداخل، ورسمت في موازاة هذه الصورة صورة ثكل رسمت الاستشهاد مستقبلاً، فالمكان عينه والحرب عينها أنتجت صورتين متناقضتين، فالحرب بالنسبة إلى ضعاف النفوس كان سببها عملية الوعد الصادق، والاستشهاد بالنسبة إلى المؤمنين بالمقاومة حقٌ ووعدٌ بحياة لا تعرف الفناء، لأنّهم يؤمنون بقوله جلّ وعلا: « ولا تحسبّن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتًا بل أحياء عند ربّهم يرزقون»[1].

اشتغلت لطيفة الحاج على قضية تعكس موقف شعب الأرض المقاومة من حرب تموز، فالزوج منير يتهم الحزب بإشعال الحرب، فيقول: «المشكلة أنّ اللبنانيين أنفسهم غير متفقين على رأي واحد، وأنا منهم يرون أنّ عملية الوعد الصادق التي قامت بها المقاومة كانت السبب المباشر لاندلاع هذه الحرب الهمجيّة»[2]، ويتهّم قيادة الحزب بالوهم لأنّ حسابات منير ماديّة وقريبة المتناول، ولا ينظر إلى حركة زمان يجعل من الأمكنة أيقونات على امتداد حركته، فيقول منير: «لقد حوّل هؤلاء الواهمون جنة الصيف الواعد الذي كنا ننتظره وننتظر معه عشرات آلاف السائحين ...لقد حوّلوا صيفنا إلى جهنم بما يسمى الوعد الصادق»[3]، وهذا الموقف عينه تبنّاه شقيق منير الذي اتهم المقاومة بأنّها مأجورة وتريد أن تضحّي بلبنان من أجل إرضاء الخارج، فيقول:«المشكلة أنّ هذه المقاومة تريد تحويل لبنان إلى ساحة لحروب الآخرين كرمى لعيون حلفائها في سوريا وإيران، فهم مرتبطون بولاية الفقيه، أكثر من ارتباطهم بمصلحة الوطن»[4]، وهذا الكلام يعبّر عن مواقف شرائح سياسيّة وغير سياسيّة، ويعكس فعل الإعلام في تفكير المتلقين.

أنطقت لطيفة الحاج شخصياتها بأحاديث دارت في أكثر من مكان، لتؤكّد أنّ الإنسان غير المنتمي يرتبط بشكل المكان فقط، من دون أن يدرك سرّ حركة الزمان وفعله، فكشف المنطوق السرديّ عن علاقة بعض اللبنانيين الماديّة بالمكان، فهؤلاء رأوا أنّ ما يقوم به الحزب ليس إلاّ تدميرًا للبنان، وهذا الموقف كان نتيجة إيمانهم بتفوّق العدو، ونتيجة قناعتهم بعجز المقاومين عن الصمود وتحقيق الانتصار، فتذكر الكاتبة على لسان

(1) آل عمران: 169

(2) شجرة النور، ص32.

(3) م. ن. ص 33

(4) شجرة النور، ص32.

إحدى شخصيات الرواية وهي تهزأ من صواريخ المقاومة:«بضعة صواريخ قد تجعل المقاومين يشعرون بالزهو يومًا أو يومين، أو أكثر، ولكن وبعدها...؟ هل سيتفوقون على ترسانة الأسلحة النوويّة التي تملكها اسرائيل؟ إنّ الزمن زمن القوة والهيمنة والسيطرة، ولا أحد يستطيع تحدّي الدول الكبرى التي تملك المال والسلاح والقرار...[1] «وهذا الموقف السلبي تنطق به شخصيّة أخرى ترى في الرحيل سلامتها وسلامة عائلتها ولذلك قرّرت أن تهاجر، وأن تعوّض عن مكان بمكان، كأنّ المكان ثوبٌ يبدّله المرء ساعة يشاء، فتقول:» هذا البلد لم يعد وطنًا صالحًا للحياة، سوف أبدأ بتحضير الحقائب استعدادًا للرحيل في أيّ وقت....الأمور واضحة كوضوح الشمس، والذين يدّعون المقاومة وحماية الوطن جرّوا البلاد إلى هذه الكارثة[2].

أظهرت الكاتبة أنّ مستوى الانتماء إلى الوطن والمكان متفاوت، وهذا التفاوت تكشفه ظروف وأحداث تخلق نوعًا من النفور، كان سببه في رواية «شجرة النور» مغامرة حزب الله وفق ما ذهب إليه بعض من رؤساء الدول والمسؤولين، وهذا النفور يقابله التحام بالأرض تؤكّده إحدى الشخصيات في رحلة بحث عبر الذاكرة، فترسم صورة والدها الذي رفض الرحيل عن مكان كرامته ولم يقبل المغادرة، وصمّم على البقاء في بيته إلى جانب المقاومين، فقال:«كيف أترككم تقاومون وأنزح بعيدًا؟ لا بدّ أن أكون معكم. إمّا أن نحيا معًا أو نستشهد معًا»[3]، لأنّ الإيمان بالمقاومة فتح في وجدان المتمسكين بالأرض يقينًا بأنّ زمن الانتصار آتٍ، و«أنّ المقاومة وحدها تستطيع أن تعيد الحقّ إلى أصحابه الحقيقيّين»[4].

ترصد الرواية عددًا من الأحداث والمشاهد التي ترويها شخصيات تتمايز بتمايز أبناء الحياة، فترك زمن الانتصار سلطته على الأمكنة، وغيّر من موقف المتهميّن والمترددين، فصارت المقاومة بعد الانتصار يقينًا وحاجة وقدرًا جميلاً، فأكبروا عمل المقاومة، واعتزوا ببطولات الشهداء، وتحوّل، بعد الانتصار، حقد منير زوج الساردة إلى إيمان بأن «الاستشهاد هو النسغ الذي يجري في عروق الأوطان ليبقيها على قيد الحياة»[5] وامتلكه اليقين بأنّ المقاومة هي شجرة النور ولقد أينعت في قلبه ولن تموت أبدًا.

(1) م. ن. ص29.
(2) م. ن. ص39.
(3) م. ن. ص 169.
(4) م. ن. ص 173.
(5) م. ن. ص 295

أثارت لطيفة الحاج في هذه الرواية عددًا كبيرًا من القضايا وربّما كان أكثرَها بروزًا حجمُ البشاعة والإجرام والتآمر والخيانة والتدمير والتهجير والقهر الذي قابله نورُ التضحية والمقاومة والفداء والصمود والثبات والإصرار على البناء، فالخراب حوّل معالم المكان، ودمّر المظاهر الخارجيّة ولكن الزمن لم يلغِ بحراكه أضواء زمنيّة تخبر، وتسترجع وتعيد صور المكان في مرحلتي القبل والبعد.

أظهرت الكاتبة قدرتها على بناء شخصيات روايتها، وعلى رسم أساليب تفكيرهم، فرصدت علاقتهم بالمكان وبالأحداث، وكشفت عن طبيعة الشرائح الاجتماعيّة من خلال التركيز على آليات تفكير الشخصيات المجسّدة كتلاً وهيئات اجتماعيّة تنتمي إلى مكان واحد، ولكنّها تختلف من حيث النظرة إلى الأحداث وقراءة نتائجها، فلم يكن الهدف من هذه الرواية الإضاءة، فقط، على جوانب إيجابيّة يتفق عليها أبناء البيئة المقاومة، بل الإضاءة على فعل زمن الانتصار في نفوس من انزاح تفكيرهم عن الفكر المقاوم، لأنّها أرادت أن تؤكّد أنّ زمن المقاومة وما حقّقته من نصر أعاد تشكيل العواطف وبلسم جراحات النتوءات النفسيّة، ومن ثمّ تجذير المكان في فكر الأجيال وتأصيل فاعلية حركة الزمان.

كشفت الرواية أنّ للزمان سلطة على أمكنة احتفظت بثباتها الجغرافيّ بقدر ما استسلمت للتغييرات والتحوّلات التابعة لفعل الزمن في الأمكنة كلّها، فالحرب عينها التي تركت الخراب في الجغرافيا اللبنانيّة والتصدّع في النفوس، هي عينها أعادت تشكيل الأمكنة أيقونات بطولات وانتصارات، وبلسمت الجراحات النفسيّة، وبهذه التغييرات النفسيّة ستعيد نور بمساعدة زوجها بناء المدرسة وتأهيلها لتكون صالحة لتعليم الأجيال معنى الارتباط بالمكان، وليتعرّفوا إلى قيمة الزمن المقاوم .

تمايزت هذه الرواية بسلطة الزمان من خلال طغيان التذكر والاسترجاع ما يحيل على مكوث الذاكرة في زمن الحرب التي ألبست الأمكنة شكل الخراب والقتل والتدمير والقهر، غير أنّ هذه النمطيّة التصويريّة أضافت إليها حرب تموز التعريف بزمن لا يعرف المكوث، وبالتالي فحرب تموز زمن ممتد إلى ما لا نهاية وسيبقى كتابًا مفتوحًا يتعلّم منه وبه أبناء الحياة.

خامسًا: نقطة على سطر

تكشف الأعمال القصصيّة والروائيّة اللبنانيّة التي رسمت الحروب اللبنانيّة / الاسرائيليّة عن جدليّة العلاقة بين المكان والزمان، فالمكان عنصر رئيس وأساس في بناء الشخصيّة

الروائيّة فلا وجود لشخصيّة من دون مكان، ولا وجود لمكان وشخصيّة من دون زمن يمنحهما نعمة الحركة والتطوّر، فالمكان هو الوعاء الذي تتضح فيه الأحداث المتنوعّة والمختلفة في خلال زمن محدّد أو ممتد، ولذلك لا يمكن قراءة أيّ عمل قصصيّ أو روائيّ خارج مكان موسوم بالثبات والتحوّل، لأنّ الثبات شرط أساس في التكوين الجغرافيّ، والتغيّر حقيقة تقولها حركة الزمان .

تؤكّد الأعمال السرديّة أنّ حركة الزمان المقاوم تمنح ظاهر الأمكنة المقاومة مفاهيم ومعاني ودلالات جديدة، فتكتسب هذه الأمكنة من أشعة الضوء المقاوم حضورًا مغايرًا ممتلئًا بقيمة الفعل الجهاديّ الذي تشعّ به الذوات المقاومة، وبفاعليّة الحدث الجهاديّ تتسّع دائرة الضوء المكانيّ، فكلّما اتسع ضوء الحركة في زمن محدود أو ممتد يزداد المكان حضورًا وتألقًا في حركيّة التاريخ.

يكتسب المكان، إذًا، وجوده وهويته وشخصيته من فاعليّة زمن يترك بصماته على أمكنة تستمدّ ألق حضورها الجغرافيّ والتاريخيّ من فاعليّة أبناء الحياة الذين يمنحون جغرافيا المكان حضورًا بالقوة وبالفعل، فترتبط خصوصيّة المكان بفاعليّة أبناء الحياة ، ومن ثمّ يمنحهم المكان الخصوصيّة والهويّة، فالعلاقة بين الإنسان والجغرافيا علاقة تفاعل وتكامل وتواشج وتأثر وتأثير، وهذه العلاقة خاضعة في تجلياتها لسلطة الزمن المتمرد على الثبات، والزمن المتمرد على الثبات أظهرته القصص والروايات اللبنانيّة التي صوّرت الحروب اللبنانيّة/ الإسرائيليّة زمنًا مقاومًا متمردًا على الثبات، وضوءًا ينير حاضر هذه الأمّة ومستقبلها وتاريخها.

المراجع:

- عبد الرحمن بدوي، مدخل جديد إلى الفلسفة،
- عناقيد العطش مجموعة قصصيّة للدكتور عليّ حجازي – دار الفارابي– بيروت– لبنان– ط1 2012.
- «شجرة النور» رواية للأديبة اللبنانيّة لطيفة الحج، صادرة عن دار الفارابي، بيروت لبنان، ط1 ،2009
- عبد الملك مرتاض، تحليل الخطاب السردي، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر